موازين البـــلاغة
بين القدامى والمحدثين

للأستاذ كامل السيد شاهين

— ١ —

وبعد جهد جاء الأستاذ العماري يتمسح في الآية الكريمة « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » زاعماً أنه نظير قول الآخر في تشبيه البنفسج بأوائل النار ... الخ . غافلا أو متغافلا عن قدر التشبيه وما وراءه ، مدعياً أن أمره واقف عند حد الدقة والانحناء -- قال — والاصفرار ، ولو كان الأمر كما رجم لكان منزلة التشبيه في الآية منزلة التشبيه بالسنجل والزورق الفضي ، وقلامة الظفر ، مما يظهر فيه النحول والتقوس .

فالمعنى الذي تمتلىء به النفس عند رؤية القمر آخر الشهر هو الفناء بعد الامتلاء ، وذلك أن القمر نزل منازل مختلفة منذ طلوعه فهو قد زاد نوره قليلا قليلا حتى استكمل ثم تناقص قليلا قليلا حتى كاد يذهب ضياؤه ، مثله كمثل العرجون يكون حياً في نفسه مُمداً شماريخه بالحياة ثم يدب فيه اليبس والفناء فيرجع ولا غناء فيه ولا حياة . فوجه الشبه بعد التصوير يرجع إلى قلة النفع والاضمحلال واقتراب النهاية ، وإنما يهدى إلى ذلك سلامة الفطرة وحُسن التذوق[1] .

ولا أترك القول في التشبيه المحسّ حتى أضع يد الأستاذ على الميزان الذي يعرف به قيم التشبيه جمالا وغثاثة فقد ترك القدماء لنا ميزانا شاملا أملته طبيعتهم الأعجمية المتفلسفة ، وقديماً تحدى بعض الأدباء ابن الرومي ببيت ابن المعتز في الهلال :

أنظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

وقوله في الآذريون ، وهو زاهر أصفر في وسطه خمل أسود :

(١) وفي اللسان : أنه — أيضا — نبت أبيض مستدير ، يابس — إذ ضرب من الكمأة قدر شبر أو دون ذلك ، وهو طيب ما دام غضا .

أقول : لعل التشبيه في الآية بأحد هذين وليس بعرجون النخلة . وهو أقرب إلى حقيقة الصورة وأظهر في إبراز المعنى

من بعيد ، ولكنه حين لمحني تباطأ في مشيته ثم وقف متردداً ، فأدركت أنه خاف مني . وأنه حسبني أحد شياطين الظلام ، فدفعني حب العبث إلى أن أمثل دوري إلى النهاية . فتقدمت نحوه خطوتين فاضطرب وكاد يولي هارباً ، ولكن إلى أين ؟ وقد علم سلفاً أني أدركه بوثبة شيطانية واحدة . وكان منزله لسوء حظه مقابلا لمنزلي ، فجمع قواه واندفع يجري من أمامي في سرعة الريح وهو يتلو آية الكرسي في صوت عال محاولا إحراق بها ، وأنا أشير إليه إشارات تزيده رعباً ، حتى أدرك باب منزله فارتمى فيه على وجهه .

كامل : وماذا كان وقع آية الكرسي في نفسك يا أستاذ عماد؟

عماد : برداً وسلاماً على خلاف عادتها مع الشياطين .

عبد الغني : إن هذه الحادثة لا تخلو من فائدة ، فهي تعلل لنا الحوادث التي يؤكد بعض الناس أنهم رأوا فيها الشياطين رأي العين

ولكن قل لي يا عماد هل تعتقد حقاً أن لكل شاعر شيطاناً يوحي إليه الشعر ؟ كما كان يعتقد حسان بن ثابت إذ يقول :

ولي صاحب من بني الشيصبان فطوراً أقول وطوراً هوه

عماد : هذا بالطبع أمر لم يقم عليه دليل مادي ، ولكن مما لا شك فيه أن الشاعر عند ما ينظم قصيدته يكون مدفوعاً بقوة غير عادية ، فقد يعود إلى قراءة هذه القصيدة في وقت آخر فيراها أعلى من مستوى تفكيره ، ويعجب من نفسه كيف تيسر له نظمها على هذه الصورة . والشاعر الذي أعنيه هنا هو الشاعر الصادق الذي لا ينظم إلا متأثراً بفكرته ، فالتأثر هو الذي يوحي إليه ما يحسبه من وحي قوة فوق قوة البشر ، كالشياطين أو الملائكة . أما الشاعر الكاذب المقلد فشعره من وحي القردة لأنها أطبع المخلوقات على التقليد ، ويجب عليه إذا ذكر وحيه أن يقول قال لي قردي لا قال لي شيطاني .

عبد الغني : هذا حق والشعراء القردانية كثيرون في كل عصر لسوء الحظ .

(البقية في العدد القادم)

كامل كيلاني

كأن آذريونها والشمس فيها كاليه
مداهن من ذهب فيها بقايا غاليه

فذهب القدماء « أن الغرض من التشبيه هو مضاهاة أبيض على أبيض ، وأصفر على أصفر ، ومستدير على مستدير ، ومستطيل على مستطيل ، مما يُرى بالعين ، ولا فضل فيه للشعور والتخيل ، وقصارى ما يطلب من الشاعر فى التشبيه أن يثبت لك أنه رأى شيئين فى شكل واحد ومن لون واحد كأنك فى حاجة إلى ذلك الإثبات الذى لاطائل تحته ، فأما أنه أحسّ وتخيل وصور إحساسه وتخيله باللفظ المبين والخواطر الذهنية الواضحة فليس ذلك من شأنه ولا هو مما يدخل فى باب البلاغة والشاعرية .

وهذا خطأ بعيد فى فهم الوصف والشعر يخرج بهما عن القدرة النفسية إلى القدرة الإلهية التى تحكى المناظر الظاهرة كما تحكيها المصورة الشمسية .

وليس يعنيك أنت أن يكون الشاعر صحيح العين مطلعاً على المرئيات المتشابهة ليتصل وجدانك بوجدانه ، ولكنما يعنيك منه أن يكون حياً يشعر بالدنيا ، ويزيد حظك من الشعور بها[1] » ويجلى لك بما اضطرب فى نفسك من أحاسيس وخواطر لا تستطيع لها كشفاً ولا بياناً وتلك مزية الشاعر فى كل زمان ، وما كان للقدامى أن يخلطوا فى الحكم لولا أنه التبس عليهم ملكة الشعر بملكة الوصف ، وأن هذه شىء وتلك شىء آخر . « فمن وصف وشبّه ولم يشعر فليس بشاعر ، ومن شبه وأبلغك ما فى نفسه بغير وصف مُشَبِّه[2] » .

ذلك هو ما جر عبد القاهر وغيره إلى سوء الاختيار وطول الإطراء لسخافات هؤلاء الوصافين المصورين ، وإلا فأى جمال وروعة وأى وجدان أثاره الشاعر بقوله فى صفة مِنْسَر البازى :

فى هامة غلباء تهدى مِنسرا كعظفة الجيم بكف أعسرا
يقول من فيها بعقل فكرا لو زادها عيناً إلى فاه ورا
فاتصلت بالجيم صارت جعفرا

وتقرأ عبد القاهر ، فإذا كلام جميل ، وتطريز بديع أملاه تركيب الرجل العقلى الفلسفى .

ويجرى فى هذا الميدان قوله :

كأنا باسط اليد نحو نيلوفر فرند
كدبابيس عسجد قضبها من زبرجد

وقول الآخر :

لم أر صفاً مثل صف الرُّطّ تسعين منهم صلبوا فى خَطّ
من كلّ عالٍ جذعه بالشطّ كأنه فى جذعه المشتطّ
أخو نعاس جدّ فى التمطّى قد خامر النوم ولم يَغْطّ

كل هذه صور ولكنها ليست شعراً ولا تقوّم فى باب الشعر بقليل ولا كثير ، ولا يحسب لصاحبها وإن رقت صناعته بين الشعراء حساب ، وكل ما لها من حسن مرجعه دقة الريشة ، وقوة الملاحظة . أما الشعور ، أما الإحساس ، أما الإثارة التى تهز الوجدان ، فما أبعدها عن هذه الصور الميتة الجامدة .

والفرق بين الشعر والوصف ، كالفرق بين الحياة والموت فالذى يشعر إنما يعطيك صورة تدب الحياة فى أعطافها ، والذى يصور يعطيك تمثالا لا حركة فيه ولا حياة .

— ٢ —

يقول الأستاذ الخولى فى قول المتنبى :

فإن تفق الأنام وأنت منهم فإن المسك بعض دم الغزال

كلامهم فى أن الغرض من التشبيه بيان أن وجود المشبه ممكن مرفوض لأن الأديب لا يضع نفسه موضع المناقش بل يفرض نفسه على الناس . وإنما دعاه إلى هذا التخيل أن الناس ينكرون المزايا ، فقال إن لذلك نظائر . اهـ

أما أن الشعراء يفرضون أنفسهم فذلك ما لا يسع أحداً التشكك فيه ، ودونك فافتح صحيفة من ديوان ، أىّ ديوان ، فإنك واجدٌ أكثر من مثال :

قال أبو العلاء فى رثاء الشريف الموسوى :

ذهب الذى غدت الذوابل بعده رُعْشَ المتون ، كليلة الأطراف
طار النواعبُ يوم فادَ نواعيا فندبنه ، لموافق ومُنافِ
أسفٌ أسفّ بها وأثقل نهضها بالحزن فهى على التراب هواف

فهذا الذى ادعاه من اختلاج أواسط الرماح وكلال أطرافها ، وهذا الذى ادعاه من أن الغربان قامت نوادب للشريف ، وأنها لحزنها ثقلت حتى كادت تخالط التراب ، وما زعمه بعدُ من أن الغربان رثى الشريف بقصيدة على رَوِىّ القاف .

(١) ، (٢) ابن الرومى : حياته من شعره . الاستاذ العقاد .

هذا كله إدعاء سوّغه أن الشعراء يفرضون أنفسهم على الناس ، فليس فى حسابه أن يقول له القوم كذبت فأقم الدليل على ما تقول . فإذا قال المتنبي أنت أريت على الأنام وفقتهم ، فما عليه بأس ، وليس لأحد أن يقول له هذا غير ممكن أو ممكن حتى يقال إن قوله : فإن المسك بعض دم الغزال لإثبات هذا الإمكان ولكنه حين يقول ذلك يؤكد دعواه ، ويقرّب المعنى الذى قصد إليه ، وإلا فما هو بالذى يحتاج أن يثبت أن الأمر ممكن ، لأن للشاعر أن يدعى ما شاء وليس لأحد أن يحصى عليه ، فاقبض على هذا الأصل وَعِهْ ، وتبينه ، فلن تجد تناقضاً ولا غرابة ، وجُمَّال الرد فى هذا : إن الشعراء لهم أن يدعوا ما شاء لهم الخيال ، وإن التشبيه هنا للتأكيد والتقوية والإيضاح ولا يفوتنى أن أنبه الأستاذ أنه ذكر أن مَرَدَّ الغرابة فى كلام الأستاذ الحولى أمران ، ثم ذكر أحدهما ولم يذكر الآخر ، فلعل فى هذا المنسيّ الإلزام والافحام ، والإقناع والإمتاع ! .

— ٣ —

يقول الأستاذ الحولى :

(ا) هم يقولون إن بعض التعابير أوضح من بعض ، فعلم البيان هو الذى يبين درجات الوضوح » .

فيقول الأستاذ المهارى « ليست وظيفة علم البيان البحث فى درجات الوضوح » ثم يقول « هذا العلم له أبحاث كثيرة ، قد يكون البحث فى وضوح الدلالة أقلها » .

فأى تهافت هذا وأى اضطراب : علم البيان لا يبحث فى الوضوح والخفاء ، علم البيان يبحث فى هذا ولكن ليس هذا وحده .

تعال — يا أستاذ — أين الخطأ فى قول أستاذ الجامعة ؟ هل عبارته تفيد أن علم البيان لا يبحث إلا فى أمر الوضوح والخفاء كما تزعم ؟ . إنه يقول « علم البيان هو الذى يبين هذا » نعم هو ذاك فليس ذلك موكولا إلى علم المعانى أو علم البديع ، ولكنه لم يقل إن هذا كل مباحث علم البيان يا دقيق ! !

(ب) ويقول أستاذ الجامعة :

« والجملة تتكون من أجزاء سليمة ، وهذا ما يكفله علم النحو » فيزعم الأستاذ المهارى أن النحو « يبحث فى سلامة التراكيب » و« أن الذى يبحث فى المفردات إنما هو علم التصريف »

فليفرخ روعك ياصديقى ، فان الكلمة فى الجملة لها ناحيتان : ناحية هيئتها من مادة وترتيب حروف وضبط وهذه للصرف ، وناحية آخرها — إذ هى فى جملة يا فتى ! — وهذه للنحو .

وأستاذ الجامعة حين كفل النحو بذلك إنما أراد النحو والصرف ، قال فى الشافية : واعلم أن التصريف جزء من النحو بلا خلاف بين أهل الصناعة[1] » .

(ج) ويقول الأستاذ الحولى :

« والجملة قد تعرض عرضاً متنوع الأنماط » فيصل الأستاذ المحقق إلى أنه كان يجب أن يقول : ومعنى الجملة ... إلى آخره .

وذلك لا يخفى على غبى ولا لبيب .

يقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ، ليل تهاوى كواكبه

فقرر أستاذ الجامعة أن الشاعر قصد وراء التصوير وهو مداخلة السيوف ومزايلتها والتماعها فى الهجاج ، معنًى نفسياً هو الحيرة والاضطراب فتشبيهه هذه الحالة بالليل تتساقط كواكبه مرشد قوى إلى هذا الخوف الذى يتملك المحارب عند الالتحام وهياج الشر وانعقاده على رءوس الفرسان :

ولكن الأستاذ المهارى ينكر هذا ، وما كان لينكره لولا أنه يقتفى أثراً مُضلّلاً ، فيثقل ما كتب عبد القاهر حرفاً حرفاً ، ويسير وراءه إصبعاً إصبعاً ، ومع هذا فإنى أناشد شاعريته أيهما أليق بالشاعر : أن يكون مصوراً نحاتاً كما يريده القدامى أم يكون حسّاساً للظلال التى تحيط بالرئى مُشعراً لك بها فى وضوح وتقاء كما يريد النقاد المحدثون ؟

أحسب أن حكم الشاعرية لا يَعْضُدك ولا يسْعُدك وحسبى بها حَكَما .

فاضل السيد شاهين

المدرس بالمدارس الأميرية

(١) ج ١ ص ٦ طبعة محمود توفيق .